http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com ◆ العدد (1522) السنة السادسة - الاثنين (1) حزيران 2009

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

العلاقات التضامنية للشعب الكردي

القسم الرابع والعشرون

فلك الدين كاكه يي

نوروز:

ربما يسأل قارئ: وما علاقة نوروز (٢١/ آذار) بالبحث الجاري عن موقف الإسلام السياسي أزاء الكرد؟

الجواب هو انني أبحث في جذور العقلية الاساسية التي ترسم وتحرك المواقف، وليس الامور السطحية الجانبية.

فالخلافات تنشأ من الذهن، من كيفية التفكير، وبالتالي من الفكر السياسي الذي ينبني على ذلك.

تعرفون أن نوروز عيد قديم للشعوب والأقوام الآرية: الفرس، الكرد، الأفغان، الاذريون (الاذربايجانيون) والطاجيك والاوزبك وشعوب عديدة في الهند القديمة وأقوام في باكستان الحالية، في تركيا الحالية.

فهو، على الاقل، عيد كبير في قارة آسيا، تأتي جذوره التاريخية ومعانيه من مصادر شتى...فنوروز (٢١/آذار) يوم تقويمي دقيق لنهاية الشتاء وبداية الربيع، أو انتقال الكرة الارضية من حال الى حال، لذلك اعتاد المحتفلون في عديد من البلدان يبتهلون الى الله تعالى أن يغيرهم من حال الى حال، بمعنى أن يحقق أحوالهم. هذه الامنية ممزوجة بمراقبة عقارب الساعة من ثانية تحول العام القديم الى الجديد. فالعديد من الشعوب منها الكرد والفرس وآلاذريون والافغان وغيرهم يعتبرون يوم ٢١/آذار بأنها نهاية عام (تقويمي نوروزي) يمضي وبداية عام جديد يأتي، حتى أن بعض البلدان مثل ايران يعتبرون هذا اليوم، ايضا، بداية السنة المالية لهم، ويؤرخون بقية أيام وأسابيع وأشهر السنة حسب تقويم نوروزي خاص بتسميات متنوعة، هي في الاصل والجذور، تسميات زردشتية وردت في الادب الزردشتي منذ أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمئة عام.

قصدي من هذا الاستطراد الموجز هو القول بأن ثقافة نوروز عميقة الجذور في وجدان وذهنية وثقافة الشعب الكردي كبقية الشعوب التي تشاركه الاحتفاء بهذا العيد.

وتمازجت ثقافة نوروز بأساطير وحكايات ورؤى شتى، فنوروز لدى الكرد مثلاً لم يعد عيداً اعتماداً للكرد أو الطبيعة، فهو أيضا عيد الحرية والسلام والتطلع نحو النماء والتقدم وبناء الحياة الاجتماعية والسياسية الافضل.

تكفير نوروز:

لا أتحدث عن معاداة الانظمة العراقية لعيد نوروز(حتى سنة١٩٦٨-١٩٦٩) حيث أجازته رسمياً السلطة السياسية لحزب البعث في العراق، ولا أتحدث كذلك عن محاربة الحكومات التركية لهذا العيد حتى الاعوام الاخيرة حيث أجازت أنقرة الاحتفال بنوروز بل أعتبرته عيداً تركياً.....

حسنا: هو تقدم جيد في العراق وتركيا والعيد مجاز اعتيادياً في ايران لأن الشعوب الايرانية المختلفة تحتفل به أفضل وأوسع مايمكن للكرد أن يفعلوه.

وأظن أن الحكومات في العراق كانت تنطلق من مواقفها الشوفينية بشكل طبيعي ينسجم مع ثقافاتها.

الا أنني أتحدث عن تكفير بعض رجال الدين الكرد النشطاء في حركات الاسلام السياسي، لعيد نوروز، ودعوة الناس الى التخلي عن الاحتفالات النوروزية المستمرة أسبوعاً أو أكثر.....

كانوا (ومازال بعضهم) يقولون للناس في الخطب والمناسبات الدينية وغيرها بأن نوروز «بدعة غير إسلامية»، وأنها بمثابة «احياء لديانة قديمة مهجورة تدعوالى الكفر والضلال» وكان المثقفون الكرد يصطدمون دوما بمثل هذه الدعوات التكفيرية الغريبة لتقاليد اجتماعية قومية، بينما الشعوب الإسلامية قاطبة، كما أسلفنا في فقرات سابقة، تحتفل بأعيادها الوطنية والقومية والاجتماعية وتقاليدها القديمة وتراثها الى جانب احتفالها بأعياد رمضان والأضحى والمولد النبوي وغيره.

وليس ثمة أي تناقض أو تضارب بين الاحتفال بالأعياد الدينية من جهة وأحياء المناسبات القومية القديمة من جهة أخرى.

أما بعض فئات علماء ورجال الدين (باستثناء علماء احرار متنورين) فقد كانت، ولاتزال، حبيسة الثقافة القومية السائدة للأمم الأخرى، فتتنكر للثقافة الكردية بل وتكفر بعض عناصرها الاساسية مثل نوروز او مثل أي حديث عن التراث الزردشتي الذي يشكل، شئنا أم ابينا، جذور ومنبع الثقافة الكردية الراهنة، حتى اللغة الكردية تستمد شرعيتها وتأريخها من المنبع الاول وهو كتاب (الآفستا) الذي جاء به زردشت الحكيم فقد كشفت لي مطالعاتي الطويلة في هذا الكتاب وتأملاتي في الماضي والحاضر، أنه ما من كلمة كردية في أية لهجة كانت شمال كردستان أو جنوبها، شرقها أوغربها، الا ويمكن العثور على جذورها في التراث الزردشتي الغني الواسع، لاسيما كتاب (الآفستا)، أو كما يكتبه بعض الكتاب العرب بشكل (الابستا/أوالابستاد).

التراث العربي والاسلامي غني بالحديث عن نوروز:

يتجاهل بعض علماء الدين الكرد حتى التراث الاسلامي والعربي واهتمام الخلفاء العباسيين مثلا بعيد نوروز، وكيف أن بعض الامراء والولاة في الاقاليم كانوا يجلسون أيام نوروز لاستقبال المحتفلين وتهنئتهم، بل .. ينسب الى علي بن أبي طالب (رض) أنه حث المحتفلين بنوروز على الاستمرار فيه.

وأما كتب المؤرخين منذ القرون الاولى للهجرة فتزخر بأخبار نوروز وتقاليد وعادات الناس فيه.

هذا الموضوع بحد ذاته يمكن أن يصير موضوعاً لكتاب ضخم اذا بذل أحد الكتاب جهداً ووقتاً بجمع وتصنيف وتحليل ماقاله العرب وخلفاؤهم ومؤرخوهم عن نوروز قولاً ايجابيا دون تكفير أو تقبيح أو تقليل. فبعض المؤرخين ينقلون بأمانة تفاصيل الاحتفالات ورموزها وجذورها القديمة وكانهم كانوا يكتبون ريبورتاجات صحفية ناجحة كحال الصحفيين والاعلاميين الكبار.

الاحتلال الذهني والتبعية الفكرية :

سواء في المجتمع الكردي أو في أي بلد فأن «السيادة « المسيطرة على تقاليد السلطة «الثروة» يتوجهون اولاً نحو عملية «غسل الدماغ» وهي عملية موجودة منذ الانقسام الاجتماعي الطبقي وظهور الدولة والسلطة السياسية. وعملية «غسل الدماغ» تنجح أحياناً بشكل طبيعي من خلال التكرار اليومي، بدون حدود، لعناصر الثقافة السائدة، مما يؤدي تدريجيا الى ضمور وخفوت الثقافة الاصلية الام.

هذا هو، بايجاز، معنى الاحتلال الذهني الذي يسبق أي أحتلال سياسي، بل ويبقى حتى بعد نهاية الاحتلال السياسي. ومن هنا تنشأ التبعية الفكرية العمياء التي تجعل مثقفي الامة المغلوبة «يراقبون» أنفسهم حتى لايخرجوا من «دائرة الذهنية السائدة»، فكل خروج عليها يتحول الى «كفر» و«زندقة» و«انحراف و ضلال».

مامعناه أن الناس يصبحون رقباء ذاتيين على أنفسهم، وأما بعض أفراد المؤسسة الثقافية الرسمية فيتحولون الى «رقباء» و«حراس» في آن واحد فيقمعون بني جلدتهم....ولا ننسى أن المؤسسة الدينية، في أية ديانة أو بلد، هي مؤسسة ثقافية اجتماعية، رقابية غالبا.

لذلك يصطدم الأحرار بهذا الجدار الشاق الذي بني عبر تاريخ طويل . هذا الاصطدام يفسر سرعة وقوع الأحرار، في أي زمان ومكان، ضحايا للقمع الشديد المباشر، ابرزهم رموز التصوف والعرفان في القرون الماضية، والنشطاء والمفكرون الذين يريدون تغليب العقل الفلسفي والعلمي على الجمود والركود الفكري.

فالشعب الكردي، في كفاحه الطويل من أجل الحرية الثقافية ومنها الاحتفال الحر العلني بعيد نوروز، الذي يجسد عنصراً من عناصر هويته التاريخية، هذا الشعب عانى طويلاً، يسانده الأحرار من الشعوب الأخرى، وضحى من أجل نوروز وأحرقت شابات كرديات أنفسهن وسط الملأ العام في مدن كردية خلال العقدين الأخيرين كذلك في المعتقلات تأكيداً على إصرار الكرد على تحرير نوروز من قبضة الاستبداد والظلامية الثقافية.

أخشى من بقية العلماء:

لدى حلول مناسبة نوروز هذا العام، بعث لي عالم دين كردي جليل متنور، مطلع جيداً على التأريخ والثقافة، برسالة شفاهية عن طريق صديق فيما اذا كان موضوع ثقافي ما يشغلني هذه الايام حتى يساعدني.

كان فرصة ذهبية لي فقلت للصديق فوراً... نعم! والف نعم! يشغلني استمرار بعض رجال الدين الكرد في تكفير عيد نوروز، وتحقيره، ودعوة الناس كي لا يحتفلون به. لا أفهم سرّ استمرار هذه الذهنية رغم مرور عقود على إعلان نوروز رسمياً في العراق (حوالي ١٩٦٨-١٩٦٩)... الم يفهموا المعاني الثقافية والاجتماعية لهذا العيد الذي لا يضر الدين الإسلامي في اي شيء..؟

حينذاك انتهزت الفرصة وقلت لصديقي ان فضيلة (...) لابد أنه يعرف جيداً ماذا ورد في التراث العربي والإسلامي عن نوروز ومحاسنه وإطلاق حرية الناس للاحتفال به، حتى ان بعض الامراء المسلمين العرب كانوا يبادرون إلى تشجيع الناس على ذلك.

ويبدو ان صديقي العالم قد فهم رسالتي فنقلوا لي أنه أجاب مبتسماً:

– أجل! أعرف الكثير عن هذا التراث ومصادري غزيرة وهي بالعربية، وموثوقة. أستطيع التحدث ساعات طويلة عن ان نوروز مناسبة اجتماعية ثقافية لا تضر بالدين، بل تقرب الناس الى بعضهم وتوحدهم من خلال الاحتفالات الشعبية الواسعة بعفوية.

فأرسلت له: ولماذا لايحدث الناس عن ذلك؟

قالوا ان فضيلته أبتسم وردّ بعبارة موجزة: أخشى من بقية العلماء!

يقصد أنه يخشى أن ((يكفرُه)) رجال دين آخرون ويؤلبون الجهلة... وكان على حق، فقد سبق ان تحدث فضيلته في بعض الأمور الدينية حديثاً صريحاً بفكر حر وسعة اطلاع وفنده العديد مما وضعه بعض العلماء في روع الناس وأذهانهم وكشف عن أخطاء ونواقص العديد مما كان الناس يعتبرونها ((مسلمات دينية)) وهي ليست كذلك في الواقع. فقد عانى صديقنا العالم على أيدي علماء آخرون... هم، كما قلت، رقباء المؤسسة الدينية الموروثة رغماً عنا!

ثم تابعت، عن طريق العديد من الزملاء، ماقاله رجال الدين والوعاظ والكتاب الإسلاميين عن عيد نوروز هذا العام، فلم نسمع ولم نر واحداً منهم يتحدث عن حق الناس في كردستان في الاحتفال بهذا العيد، إلاّ ان كاتباً إسلاميا واحداً هو فضيلة (ملا عمر جنكياني) نشر مقالاً تحليلياً مطولاً عن نوروز، وأوضح للناس أن الاحتفال به لا يناقض أمور الدين، بل أنه مناسبة اجتماعية ثقافية ذات جذور في تأريخ الكرد، وهي مناسبة احتفالية أيجابية تشجع الناس على التواصل والتمازج والتسامح مع بعضهم.

وأضاف فضيلتُهُ شروحاً ومعاني جميلة على نوروز، مؤكداً أنه جزء من هويتنا.

ولهذا الكاتب الإسلامي، الغزير الإنتاج والاهتمام، زاوية صحفية أسبوعية تحتل صفحة كاملة أو أكثر من جريدة (خه بات) الكردية في أربيل، عن مختلف الشؤون الدينية، وبرنامج تلفزيوني أسبوعي عن نفس المواضيع. ومن كتاباته المهمة أيضاً ما كتبه عن كيفية تعامل المجتمع الإسلامي مع أتباع وأنصار الأديان والمذاهب المختلفة في هذه المجتمعات، وأهمية مراعاة التسامح وحقوق المواطنة واحترام حريتهم في الاعتقاد والعبادة والرأي.

توجد أصوات ومنابر أخرى تتحدث بروح ايجابية، أما السيد ملا عمر فهو أوضحهم فكرا لأنه يكتب بانتظام ويقدم برنامجه التلفزيوني أيضاً. ويتعرض أحياناً إلى نقد ومراجعة طروحات الإسلام السياسي.

تعامل الحكومة العراقية مع الأكاديميين ..

د.عبد الجبار منديل

لم يحدث في اي مرحلة من مراحل التاريخ السياسي للعراق الحديث ان تم تجاهل الأكاديميين والمثقفين العراقيين بهذه الصورة كما يحدث الأن في العراق الجديد.

في العهد الملكي ما ان ترعرت وتطورت الطبقة الوسطى وفئة المثقفين حتى بدأت الدولة تستعين بهم في كل انشطتها السياسية والإقتصادية والثقافية والقانونية ، فمنذ ثلاثينيات القرن الماضي ومع بروز اول كوكبة من المثقفين وخريجي المؤسسات العلمية حتى بدأت الحكومات المتعاقبة تدعمهم وتدفعهم الى الأمام وتعطيهم المواقع السياسية والقيادية باعتبارهم نتاج الدولة العراقية الجديدة والناشئة والفتية . وهكذا شارك الشباب الجديد انذاك في تطوير الدولة وقيادتها بدءاً من كامل الجادرجي وعبد الوهاب محمود وعبد الفتاح ابراهيم وحسين جميل وصديق شنشل وغيرهم .

في بداية الخمسينيات تقدمت الدولة خطوة اخرى وبمبادرة من الوصي على عرش العراق الأمير عبد الأله ونوري السعيد وبدأ الأكاديميون يأخذون دورهم ويدخلون عالم السياسة من اوسع الأبواب ، فتسنم الدكتور فاضل الجمالي وزارة الخارجية ثم رئاسة الوزراء ودخل الوزارة الدكتور نديم الباججي والدكتور رشدي الجلبي وغيرهم .

في العهد الجمهوري شارك في اول وزارة الدكتور طلعت الشيباني والدكتور جابر عمر والأستاذ ابراهيم كبة والدكتور فيصل السامر وكلهم من الأساتذة الجامعيين.

بل ان حكومة البعث التي اتت بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ لم تشذ عن القاعدة . وفي العهد العارفي كان للأكاديميين دور كبير، فقد اسندت رئاسة الوزراء الى الأستاذ عبد الرحمن البزاز واسندت مناصب وزارية الى الكثير من الأكاديميين . واستمر البعثيون بعد ١٩٦٨ على السير بنفس النهج حتى بداية الثمانينيات في عهد صدام حيث قلب صدام للأكاديميين ظهر المجن وتجاهلهم وبدأ يستعين بالجهلاء من الأقارب والمحاسيب وبدأ بهذا الإنحدار الحقيقي للدولة العراقية .

العهد الحالي يسير على نفس النهج الذي اختطه صدام باستبعاد الأكاديميين العراقيين واقصائهم والاستعانة بالمحازبين والربع من الجهلاء والأميين اصحاب الشهادات المزورة والذين فضحونا امام العالم بفسادهم وجهلهم بل وصل الأمر بالعهد الحالي الى محاربة الأكاديميين في رزقهم واحالتهم على التقاعد وهم بعد في اوج عطائهم .

اما بخصوص الأكاديميين العراقيين المغتربين، فأوضاعهم اصعب . فهناك الاف الأكاديميين الذين هاجروا الى دول الجوار والى اوروبا وامريكا واسيا منذ عهد صدام والذين فقدوا حتى حقوقهم التقاعدية وحرموا منها . وهناك المئات منهم ممن لا يجدون قوت يومهم مع ان لهم خدمة تقاعدية في ذمة الوطن الذي يتعرض للنهب من قبل بعض اللصوص وتجار الشعارات الذين يرفعون هذه الشعارات مرة باسم الديمقراطية وفي كل مرة باسم التحرر من الدكتاتورية والطغيان.

يبادر بعض افراد طاقم احزاب الحكومة بين آونة واخرى الى اقامة مهرجانات يسمونها ثقافية او مؤتمرات يقال انها للأكاديميين العراقيين ولكن في حقيقة الأمر يدعى لها بضعة من الأكاديميين فقط اما البقية فهم من الأنصار او المصفقين او المستفيدين . وهذه لعبة قديمة اجادها نظام صدام اكثر مما يجيدها اولئك البعض، ثم يرافق ذلك بضعة ايام في فندق الرشيد مع استضافة كاملة وتنتهي (الزفة) وتتعالى الأصوات في الفضائيات في تمجيد الحكومة التي ترعى ابناء العراق. ويعود كل الى مكانه كما تعود الحكومة الى نهجه العتيد في سدّ اذانها عن شكاوى الأكاديميين الذين ضاعت حقوقهم التقاعدية بين الموظفين البيروقراطيين وبين تقلبات النظام الكثيرة والمتناقضة والتي تحتاج الى (فتاح فال) ليحل الغازها .

يأتي بعض سياسيي آخر زمن ممن اختارهم الناس وهم مغمضو العيون في اوج الصراع الطائفي الذي لم يستفد منه سوى تجار الأحزاب السياسية ليطالبوا بامتيازات لا حصر لها وبدون وجه حق وبعد خدمة عدة اشهر كما حدث مع اعضاء الجمعية الوطنية السابقة او مع اعضاء مجلس النواب الحالي الذين ضربوا اسوأ مثال لتحمل المسؤولية .

ان الأكاديميين العراقيين الذين خدموا عشرات السنين وقاموا بتخريج أجيال وأجيال في جامعاتهم يواجهون بشروط تعجيزية لإنجاز معاملاتهم التقاعدية ومنهم كاتب هذه السطور الذي خدم (٣٨) سنة منها (٢٨) سنة في العراق و (١٠) سنوات في الجامعات العربية واخرون كثيرون الذين ضاعت حقوقهم التقاعدية بعد خدمة طويلة في الجامعات العراقية وغير العراقية.

ومن المفارقات الغريبة لتصرفات الحكومة العراقية هو انها توجه النداء اثر النداء لعودة الكفاءات العراقية المغتربة في الوقت الذي يحال فيه زملاؤهم في الداخل على التقاعد بالجملة اما الذين يعودون من كفاءات الخارج فيواجهون بقائمة طويلة من الشروط التي لا اول لها ولا اخر وبعد معاناة وعذاب لعدة أشهر يعودون صفر اليدين وبخفي حنين الى بلدان المهجر، لذا فنحن لفيف من الأكاديميين المغتربين في بلدان المهجر ننوي تشكيل لجنة مفتوحة للمطالبة بحقوق الأكاديميين العراقيين المغتربين، ونهيب بجميع الأكاديميين رفع أصواتهم بالمطالبة بحقوقهم الضائعة.

نقد ثقافة الجماهير الإسلامية

مهدي النجار

«كُن جريئاً في استخدام عقلك، هذا هو شعار التنوير»

كانط ١٧٨٤

احترام الجماهير والمساهمة في تغيير أحوالهم ومعاشاتهم من الأرذل إلى الأحسن، والسعي لنقلهم إلى فضاءات الكرامة والحرية والأمان لا يتأتى من خلال دغدغة عواطفهم وتهييج مشاعرهم والكذب عليهم او التصفيق لهم وتجييشهم والإشادة بعقائدهم ومعتقداتهم، إنما يأتي من خلال تفحص ثقافتهم ونقدها وسحب بساط الالتباسات والأوهام من تحت أقدامهم وجعلهم يعيشون حالة عقلانية وواقعية، وهم بالتأكيد لا يرغبون بذلك ويمانعون مثل هذا الفعل الموجع الذي ينتزعهم من حالة الاسترخاء، خاصة وان مرجعياتهم الفكرية تؤلبهم ضد اي تساؤل او اي فحص ونقد، ولكن هذا أمر مُلزم لمن يعمل على توعية الجماهير. هنا نعني بلفظ الجماهير الأغلبية الساحقة من الناس في العالم الإسلامي، يسميهم الإمام الغزالي «العوام» وتطلق عليهم ادبيات اللغة عدة تسميات: «الرعاع»، «الغوغاء»، «الهمج»...وذكر الإمام علي في نهج البلاغة: «ان الناس ثلاثة فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.» ج٢ ص١٧٨ ويُطلق تعبير «الغوغاء» على هؤلاء الذين لا عبرة بهم. قال الأصمعي: «والغوغاء الجراد إذا ماج بعضهم في بعض. وبه سُمي الغوغاء من الناس». وعند هيغل (جورج فريديك ١٧٧٠ -١٨٣١) الرعاع هم الفقراء الحاقدون او كما يقول:»الفقر بحد ذاته لا يحول الناس الى رعاع، فالرعاع لا يبرزون الى حيز الوجود إلا عندما تنضم الى الفقر عقلية معينة: حقد داخلي موجه ضد الاثرياء، ضد المجتمع، ضد الحكومة».

لانريد ان نتطرق الآن الى الاسباب التى نراها جوهرية في نشوء ظاهرة الجماهير/ العوام في المجتمعات الاسلامية وانتشارها الواسع، انما ينبغي تمييزهم عن النخب الاجتماعية (الحاكمة/السياسية/ المثقفة/الدينية/...) وهم بصورة عامة – اي الجماهير/العوام – يشكلون الاغلبية من المسحوقين والاميين والمهمشين والمنبوذين، كذلك يتمايزون بكونهم ليسوا بأصحاب قرار إنما ينساقون خلف مرجعياتهم الدينية او السياسية او الشخصيات الكاريزمية بحالة رعوية عمياء.

اغلب الكتاب والمفكرين داخل المجتمعات الاسلامية المعنيين بشأن الجماهير يرتكبون في كتاباتهم الكثير من المغالطات التاريخية وينسبون لهذه الجماهير من صفات ليست فيها وينفخون في صورتها لحد الانتفاخ بل يصل الامر في توصيفاتهم المغالية الى الانماط الرومانسية والاسطورية التي تهيمن عليها عاطفة الزهو والافتخار من اجل كسب ودهم ورضاهم وتعاطفهم، فكم من كاتب وكم من تيار ديني وسياسي يُحسن الهيمنة على شعور العوام ينادي: الجماهير امل الامة ومستقبلها او: ارفع رأسك انت مسلم. كيف يرفع المسلمون رؤوسهم وهم يشكلون الاغلبية من فقراء العالم وتعيش نسبة ٢٣ ٪ منهم تحت خط الفقر، وكم من النخب والتيارت حين سنحت الفرصة لها بتسلم السلطة تناست امل الامة وركلت مستقبلها كما الكرة!

فحص الاورام والرضات والعلل التي تسكن العقل الجماهيري وتجعله يُحرك تاريخه الى الوراء لا الى الامام – كمَا تفعل اغلب شعوب الارض– او في احسن الاحوال يظل ساكناً في محيطه التراثي المكرر دون رغبة في الافلات من هذا التقهقر العكر والاندراج في تحولات الحداثة، ان فحص ذلك ثم اقتراح الحلول لمعالجته هو الرافعة الاساس التي تنقل الجماهير الى اوضاع اكثر سمواً واكثر كرامة وعَيشاً يُطاق. صحيح ان الفقر وحده ليس بالسبب الكافي لانتاج ظاهرة الجماهير/ العوام كما يقول هيغل بل لابد من نظام استبدادي (سياسي/ديني) من انتاجها وانتشارها، ويمدنا التاريخ الاسلامي بشواهد متينة تذكر ان النظم الاستبدادية لم تنتج سوى ثقافة الهلع والخوف في نفوس شعوبها، ومن هذه الشواهد نقتطف هذه اللوحة الداكنة من الاستبداد يرسمها لنا الشيخ الطبري في تاريخه على لسان احد الولاة:» ايها الناس اعلموا على مَن اجترأتم ومن عصيتم انه عبد الملك بن مروان امير المؤمنين ليست فيه غميزةٌ ولا لاهل المعصية عنده رخصة، سوطه على مَن عصى وسيفه على من خالف فلا تجعلوا على انفسكم سبيلا» ـ تاريخ الامم والملوك/ج٨ .

وفي تهديد آخر لاحد الامراء يذكر الطبري قوله: «اما والله اني لاحمل الشر محمله واحذوه بنعله واجزيه بمثله. واني لارى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لانظر الى الدماء بين العمائم واللحى قد شمرت عن ساقها تشميرا» نفس المصدر/ج٨ .

من صفحات التاريخ نلاحظ ان النظم الاستبدادية اول ما تنتجه هو ثقافة الخوف وبالطبع ان مثل هذه الثقافة لاتصنع الا مجتمعات من قطعان وارقام احصائية وتتساوى الجماهير جميعها امام السلطة كونها لا شئ!

يمكن تلخيص اهم الخصائص التي تتمايز بها ثقافة الجماهير في البلدان المتخلفة:

اولاً: ثقافة مُشبعةٌ بالخوف والهلع والقلق ومثل هذه الذهنية لا تنتج غير افعال انتهازية ومواقف ماكرة ومُداهنة، وهذه صفة تتمايز بها ثقافة شعوب الارض المتخلفة ومنها الاسلامية اكثر .

فمثلاً طُبعَ على لسانها اشهر شعار انتهازي رخيص صارت الجماهير تلهج به وتتقن ترديده من غيرها دون ملل اوخجل امام زعمائها : «بالروح بالدم نفديك يا ...».

ثانياً: حين تحين الفرص لهذه الجماهير وترى نفسها في فضاءات الحرية دون حواجز او ممنوعات ترتبك وتتخبط وتحول الحرية الى خراب وفوضى وترتكب أخطاء تاريخية جسيمة لا يردعها دين ولا تمنعها أخلاق ولا تحد من شناعاتها مبادئ، والدليل على ذلك ما حدث في العراق بعد انهيار نظام الاستبداد في العام٢٠٠٣ حين تحطمت جميع القوى الضاغطة والرادعة، وعمَّ الانفلات والفوضى فراحت الجماهير تمزق نفسها بنفسها وانطبق عليها القول القائل:» الانسان ذئب على اخيه الانسان» حدثت الاعتداءات والانتهاكات الفاضحة على البشر والشجر والحجر، حدث النهب والتدمير الهستيري للمال وللممتلكات الخاصة والعامة. كل ذلك جرى تحت شعارات اسلامية وبسواعد مذهبية وبدفع من تيارات طائفية! ولو حدث هذا الانهيار في اي بلد اسلامي آخر لحدث فيه مثل ما حدث على الارض العراقية.

ثالثاً: تندفع هذه الجماهير بذهنية ظلامية متزمتة بعيدة كل البعد عن فضاءات التنوير مُنقادة الى مرجعيات مغالية في تطرفها الظلامي تضع نفسها – اي هذه المرجعيات – خارج الخطأ وخارج السؤال والنقد، وما لديها هو الحقيقة والحق ودونهما باطل وكافر، لذا نلاحظ ان ذهنية هذه الجماهير معبأة بروح القطيع دون روح المواطنة، ومعبأة بمزيد من السأم والضجر وبمزيد من الحقد على الناس حتى تغدو الحياة بذهنية هؤلاء الناس لا رجاء بها ولا امل وبالتالي تتهيأ داخل نفوسهم (خاصة الشبيبة) نزعات الموت والانتحار.

رابعاً: نلاحظ دائماً ان الجماهير تخوض عداواتها وحروبها ومذابحها البينية (بين مكونات الجماهير المختلفة) نيابة عن النخب السلفية المتشددة ودون الرجوع الى نفسها او اتخاذ القرارات بنفسها، بمعنى دون ادراك مستقل لافعالها من خلال فتاوى وشعارات مليئة بالضغينة والكراهية وطرد المخالفين او اقامة الحد عليهم.

خامساً: تتبجح الثقافة الاسلامية بتفوق عددها السكاني على بقية الامم والشعوب كأن أمر الحياة يتعلق بأعداد الناس وكثرتهم وسرعة تزايدهم لا بنوعياتهم وصلاحيتهم ومدى قدرتهم على العيش بكرامة وسعادة لذا لا يقض النمو السكاني المفرط مضاجع الذهنية الجماهيرية فهي لا تحسب له اي حساب ولا تلتفت الى ما آل اليه حالها من ذل وهوان ومن اوضاع متدنية في مجالات الحياة كافة: مجالات التنمية والسكن والتعليم والصحة والتغذية وتنشئة الطفولة...لان النمو المفرط لهذه الجماهير يجري وفق معادلة عكسية مع معدلات الانتاج الزراعي والصناعي فكلما زادت اعداد الناس زاد استهلاكها واصبحت معدلات الانتاج لا تتوافق مع هذه الزيادات السكانية الرهيبة خاصة وان عوامل الطبيعة اصبحت تسهم هي الاخرى بشكل اساس في انخفاض معدلات الانتاج كزيادة التصحر وارتفاع نسب ملوحة الارض وقلة خصوبتها وقلة مصادر المياه، اضافة الى تخلف وسائل وطرق الانتاج واحياناً بدائيتها في مجالي الزراعة والصناعة. ان عامل النمو السكاني المفرط برغم خطورته الشديدة الا انه ينتعش في قلب الثقافة الجماهيرية التي جعلت من المرأة (نصف المجتمع) حسب عرفها وتقاليدها كائناً ينتج الخلف ويهيئ العلف.

اراء وافكار Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١. لا يزيد عدد كلمات المقالة على ٧٠٠ كلمة.
٢. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة ومرفق صورة شخصية له.
٣. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
Opinions112@ yahoo.com